عرض وتحليل لكتاب(1)

البحر الأحمر والبلدان المجاورة فى نهاية القرن السابع عشر

The Red sea and adjacent countries at the close of the 17th. century as described by Joseph Pitts, William Daniel and Charles Jacques Poncet. Edited by Sir William Foster. London 1949.

هذا كتاب قامت بنشره جمعية هكلوت بلندن . وهو يشمل الأجزاء الخاصة بالبحر الأحمر من كتب بعض رحالة القرن ١٧ وهم : جوزيف بتز وويليام دانيال الإنجليزيان وچاك بونسيه الفرنسى ، وبالكتاب مقدمة لسير ويليام فوستر تشمل نبذات عن حياة هؤلاء الرحالة وتاريخ رحلاتهم .

وللرحلات مكانة خاصة فى دراسة تاريخ الشرق الأدنى فى القرنين ١٧ ، ١٨ وذلك لندرة ما جاء إلينا عن هذين القرنين من كتابات المعاصرين . ولهذا تعتبر الرحلات بمثابة مصدر من المصادر الأولى فى دراسة تاريخ هذه الفترة لهذه المنطقة . ولهذا النوع من المصادر التاريخية مصاعبه . فهؤلاء الرحالة فى أغلبهم يجهلون اللغة الأصلية للبلاد التى زاروها وهم لا يستقر بهم المقام طويلا فى هذه البلاد حتى يتفهموا أحوالها السياسية وغير السياسية . هذا بالإضافة إلى

---

(١) وبالكتاب ملحق بملخص عن رحلة جون أوفنجتن 'A Voyage to Surat' وأوفنجتن John Ovington كان واعظاً فى المركز التجارى لشركة الهند الشرقية فى صراط من ١٦٩٠ إلى ١٦٩٣ وبعد عودته لإنجلترة نشر فى ١٦٩٦ كتاباً عن تجاربه إبان إقامته فى صراط . ولم يزر أوفنجتن البحر الأحمر بل جاءت جميع معلوماته عن هذا البحر مشتقة من البحارة والتجار الإنجليز والهنود الذين يقومون بالتجارة بين صراط أو غيرها من الموانىء العربية ولذلك فتعتبر كتابات أوفنجتون من الدرجة الثانية من ناحية القيمة العلمية . وملحق بالكتاب أيضاً خريطة هيوب لودولف Hiob Ludolf (١٦٢٤ — ١٧٠٤) للحبشة وكلمة عن تاريخ لودولف وأعماله كتبها R.A. Skelton . ولودلف من أوائل الأوروبيين الذين درسوا اللغة الحميرية وكتب فى ١٦٨١ كتابا باللاتينية عن تاريخ الحبشة ترجم فى ١٦٨٤ تحت عنوان A New History of Ethiopia .

أما الخريطة فظهرت فى ١٦٨٣ — وكان لهذا الرجل مشروع سياسى خيالى عن إيجاد تحالف بين فرنسا وهولنده وإنجلترة والحبشة ضد الأتراك العثمانيين الذين كانوا يحاولون غزو فيرنا (١٦٨٢ — ١٦٨٣) . الملحق من ص ١٧٣ إلى ١٨٥ من الكتاب .

أن الطابع الإسلامى الضيق الذى كان يطفو على مجتمعات الشرق الأدنى فى ذلك الوقت قد أدى إلى تعذر اشتراك العناصر الأوربية خاصة والمسيحية عامة فى الحياة العامة ، فكونت هذه العناصر جاليات صغيرة لها حياتها الخاصة المهددة أبداً بتعسف الحكام ومضايقاتهم .

وكان الأتراك العثمانيون حين بسطوا سيطرتهم على أنحاء العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى قد أقاموا من دولتهم حاجزاً قوياً بين هذا العالم وبين العالم الغربى فانقطعت الصلة أو كادت بين العالمين وقدر للمجتمعات الإسلامية فى الشرق الأدنى الا تشترك فى التيارات العالمية السياسية والتجارية ابتداء من القرن ١٦ حتى القرن ١٨ . وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للعالم العربى فقد كان البحر الأحمر بصفة خاصة ، وبالذات فى القرن ١٧ يعانى من انقطاع الصلة بينه وبين العالم الغربى أكثر مما تعانيه بقية بقاع العالم العربى . فالبحر الأحمر خرج من القرن ١٦ بعد نضال عنيف بين قوى الاستعمار الأوربى ممثلة فى البرتغال وبين الدول الإسلامية الكبرى فى الشرق الأدنى . وحملت الدولة المملوكية فى مطلع هذا القرن عبء ذلك النضال لإنقاذ البحر الأحمر من الاستعمار البرتغالى أولا وإنقاذه مما قد يلحق به من سوء نتيجة لتحول التجارة العالمية عنه إلى الطريق حول أفريقية . واتخذ النضال ميادينه فى المحيط الهندى وجنوب البحر الأحمر . وكانت الدول المملوكية حتى وقت انهيارها فى الشام ومصر ١٥١٦ ـ ١٥١٧ ، قد فشلت فى دفع هذا الخطر. ثم كان الفتح العثمانى للشرق العربى فسقطت فى أيديهم سوريا ومصر والحجاز وبدى كأن العثمانيين قد ورثوا تركة الدول المملوكية المستقلة وفى مقدمة هذه الأثقال الخطر البرتغالى الجاثم فى جنوب البحر الأحمر يهدد البحيرة الإسلامية . وقام العثمانيون لدفع هذا الخطر ولكن على أساس واحد وهو إنقاذ العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى من خطر الاستعمار الجديد وليس ـ فيما يبدو ـ على أساس إرجاع التيار التجارى العالمى إلى البحر الأحمر ، فأسرع العثمانيون باحتلال عدن واليمن واشتبكوا مع البرتغاليين فى مواقع بحرية كثيرة فى الفترة ما بين ١٥٣٨و ١٦٣٣ . ودخل فى النضال العام أنواع من النزاع المحلى بين الأمارات الإسلامية فى زيلع

ومصوع وهرر وبين الدولة الحبشية ، فانضمت الشياخات الإسلامية إلى الحلف العثمانى بينما سارعت الحبشة إلى جانب البرتغال . واتخذ النزاع فى كل أدواره شكلا دينياً ساعد على ظهوره الطابع الدينى الذى صحب السياسة الاستعمارية البرتغالية فى الشرق . وخرجت الدولة العثمانية من هذا النزاع منتصرة به لم تطرد البرتغاليين من المحيط الهندى ولكنها نجحت فيما حددته لنفسها من أهداف وهى تطهير البحر الأحمر من القوات الأوربية والسيطرة عليه . وخرج من هذا النضال الطويل الذى انتهى حوالى ١٦٣٣ تقليد عثمانى كان نتيجة طبيعية للنضال — وفى نفس الوقت يلقى ضوءاً على السياسة العثمانية العامة فى الشرق الأدنى الإسلامى — وهو تحريم دخول المراكب المسيحية « مراكب الدول الأوربية » فى مياه البحر الأحمر فيما وراء مخا شمالا . بحجة أن البحر الأحمر تشرف عليه الحجاز وبه الحرمان الشريفان . فجاءت هذه السياسة ممعنة فى انعزال البحر الأحمر . وكان من نتائجها أن أصبح البحر الأحمر بحيرة راكدة تسير حياة بلاده السياسية وفق أحداث محلية ضيقة للغاية كالنزاع بين أشراف الحجاز حول الشرافة فى مكة أو النزاع بين الزيدية والأتراك فى اليمن . ثم زاد فى ركوده التجارى أعمال القرصنة الأوربية ضد المراكب والتجارة الإسلامية بين المحيط الهندى والبحر الأحمر ولا سيما فى النصف الثانى من القرن ١٧ . وتركزت هذه القرصنة فى هذه الفترة فى عصابة John Avery الإنجليزى الذى تعددت غاراته على ثغر عدن وحاول إنشاء قاعدة للقرصنة فى جزيرة برم عند مدخل البحر الأحمر ولكنه فشل بسبب عوامل الطبيعة فاتخذ له مركزاً فى جزيرة سانت مارى شمال شرق جزيرة مدغشقر وألحق أضراراً بالغة ليس فقط بالتجارة الإسلامية بل كذلك بقوافل الحجاج الداخلى إلى البحر الأحمر(١) .

وتحت هذه الظروف كان بعض الرحالة الأوربيين يتسربون من خلال الحواجز العثمانية إلى شواطىء البحر الأحمر . أما جوزيف بتس فكان أول إنجليزى استطاع زيارة مكة والمدينة ، ووليام دانيال أول إنجليزى — فيما نعلم —

---

(١) Gosse: History of piracy pp. 178-181.
Anderson; Western India pp. 121-123.

حاول السفر من لندن إلى الهند عن طريق البحر الأحمر ، وأما شارل بونسيه ففى مقدمة الأوروبيين الذين زاروا الحبشة ووصفوا أحوال هذه البلاد فى الفترة ما بين طرد البرتغاليين من هذه البلاد ١٦٣٣ وزيارة الرحالة الإسكتلندى جيمس بروس ١٧٦٩ . وعلى ذلك فكتابات هؤلاء الرحالة الثلاث تكون حلقة واحدة من الناحية الجغرافية . فرحلة بتس تصف مصر والحجاز ورحلة دانيال تصف الساحل الشرقى للبحر الأحمر ورحلة بونسيه تكمل الحلقة بوصف الحبشة والثغور على الساحل الغربى لهذا البحر . ومن الناحية التاريخية تكون هذه الرحلات حلقة كذلك ، فالرحالة الثلاث معاصرون لبعضهم البعض ، بتس قام برحلته فى ١٦٨٤ أو ١٦٨٥ ودانيال فى ١٧٠٠ وبونسيه فى ١٦٩٩ ، ١٧٠٠ . بل إن بونسيه التقى بالفعل مع دانيال فى جده . وثلاثتهم لم يكونوا جدداً على المجتمع الإسلامى فى الشرق الأدنى ، فبتس قبل رحلته إلى الحجاز قضى ما يقرب من سبعة أعوام فى الجزائر وتونس ودانيال عاش بعض الزمن فى فرنسا واتصل بالبحر الأبيض وزار حلب وفلسطين . أما بونسيه فعاش فى القاهرة لبضع سنين قبل رحلته إلى الحبشة والبحر الأحمر .

ويلاحظ على هذه المجموعة من الرحلات فى البحر الأحمر أنها لا تتناول اليمن (باستثناء زيارة قصيرة لدانيال لمخا) وأن مركز التقاء هؤلاء الرحالة فى زياراتهم وكتاباتهم هو مصر وحبشة ، وأخيراً أن هؤلاء الرحالة — باستثناء بونسيه — لم يحاولوا الكتابة عن الظروف السياسية فى البلاد التى زاروها فأغلب كتاباتهم تدور حول الوصف الجغرافى — ولتتناول الآن الكلام عن كل رحلة على انفراد .

1 — Joseph Pitts : Faithful account of the Religion and Manners of the Mahome'ans ... with an account of the Author's being taken captive, the Turks creulty to him, and of his escape.

جوزيف بتس إنجليزى من أكستر . عمل كصبى فى المركب Speedwell التى كانت تتاجر مع جزر الهند الغربية . وأثناء عودتها من هذه الجزر فى ١٦٧٨ أسرها بعض القراصنة الجزائريين بالقرب من الساحل الإسبانى وباعوا بتس فى الجزائر كعبد ثم أهداه سيده إلى أخ له فى تونس . وهناك حاول القنصل

البريطانى وبعض التجار الإنجليز شراءه ولكن فشلت الصفقة ، ثم عاد بتس مرة أخرى مع سيده ، الذى كان يمعن فى إساءة معاملته إلى الجزائر وأرغمه على اعتناق الإسلام . واستمرت متاعب بتس حتى قتل السيد فباعته زوجة سيده إلى رجل آخر واتخذه السيد الجديد خادماً خاصاً وأحسن معاملته . ثم سافر السيد إلى الحجاز للحج فأخذ بتس معه ومن ثم كانت رحلته إلى الأراضى المقدسة فى الحجاز . سافر بتس بطريق البحر من الجزائر إلى الإسكندرية فرشيد فالقاهرة فالسويس فجدة فمكة فالمدينة . وفى العودة اتخذت القافلة طريقاً مختلفاً ، من المدينة شمالا وحول خليج العقبة فالسويس فالقاهرة فالإسكندرية فالجزائر — وكان سيده قد اعتقه فى مكة فالتحق بالبحرية العثمانية فى الجزائر واشترك فى الحرب ضد الأسبان فى حصار أوران فى ١٦٨٨ ، ثم صدرت الأوامر للمراكب الحربية العثمانية بالانسحاب إلى أزمير وهناك تمكن بمساعدة القنصل البريطانى William Raye وبعض التجار الإنجليز من الهرب من الخدمة العثمانية إلى مركب فرنسى كان راسياً فى أزمير نقله إلى لجهورن ومنها إلى ألمانيا فالأراضى الواطئة ووصل إنجلترة فى ربيع ١٦٩٥ وبتس من الرحالة الذين أثارت رحلاتهم اهتمام المعاصرين وبحاث التاريخ معا . فالمعاصرون اهتموا برحلته لأسباب عاطفية . لأسره وهو صبى وللمعاملة التى لقيها من المجتمع الإسلامى وإرغامه على اعتناق الإسلام ، ثم كان اهتمام المعاصرين لنواحى غير عاطفية أيضاً . ذلك أن بتس كان أول إنجليزى يزور مكة والمدينة بعد أن كانت كتابة الأوروبيين عن مكة والمدينة مما يسمعونه من جده . أما بتس فقد أخرج للمجتمع الأوربى عن هذه الأماكن المقدسة وعادات المسلمين فى وقت الحج ، وصفاً يعتبر بصفة عامة دقيقاً بالنسبة لمعاصريه . وقد ظل كتابه المصدر الأول فى إنجلترة عن الحجاز حتى فقد أهميته بعد رحلات بعض المستشرقين من أهل العلم أمثال Burckhardt[1] فى أوائل القرن ١٩ و Sir Richard Burton [2] فى النصف الثانى من نفس

(١) Travels in Arabia in 1814-1815. 1829.

(٢) Pilgrimage to Al. Madinah and Meccah 2 vols. 1906.

القرن . ولعل من دلائل الأهمية التى لقيها كتاب بتس تعدد نشره ، فالطبعة الأولى ظهرت فى ١٧٠٤ ثم أعيد طبعه فى ١٧١٧[١] ثم أعاد بتس طبع الكتاب فى ١٧٣١ طبعة مصححه وبها إضافات وخريطة للكعبة ، ثم أعيد طبعه للمرة الرابعة فى ١٧٧٨ فى الجزء السابع عشر من كتاب The World displayed وظهرت الطبعة الخامسة فى ١٨١٠ كملحق لرحلة Henry Maundrell واسمها Journey from Aleppo to Jerusalem . ولما كان بتس أول الإنجليز الذين زاروا الحجاز فى أواخر القرن ١٧ فقد تناوله الكثير من بحاث التاريخ بالشرح والتعليق أمثال Crichton فى كتابه Arabia (Vol. II, P. 208) . Gerald De Gaury, فى كتابه The Rulers of Mecca (ص ١٥٩ — ١٦٠ و Burton فى رحلته (ج ٢ . الملحق ٥) .

كذلك قام Thomas Seccombe بترجمة لحياة بتس فى الجزء الخامس عشر من Dictionary of Nat. Biog. وهى ترجمة محفوفة بالأخطاء وتدعو إلى الشك فى أن المترجم اعتنى بقراءة الرحلة قراءة دقيقة[٢] . على أنه يبدو أن أهم المؤلفات التى تعرضت لحياة بتس ورحلته ذلك البحث الذى ألقته السيدة Cecily Radford أمام Devonshire Association فى ١٩٢٠ ونشر فى الجزء ٤٢ من Transactions of the D.A. وليس من المعروف على وجه التحديد السنة أو السنوات التى زار فيها بتس الحجاز ، فلم يحاول هو نفسه (لنسيانه للتاريخ المسيحى) تحديد هذا التاريخ مما يدل على أمانته فى الكتابة . ولكن Burton يعتقد أن الرحلة كانت عام ١٦٨٠ وكذلك المترجم له فى D.N.B. أما Radford فتحدد سنة ١٦٨٤ أو ١٦٨٥ وأما سير وليام فوستر فيحدد سنة ١٦٨٥ أو ١٦٨٦ .

---

(١) الغريب أن بتس يدعى أنه لم يعرف شيئاً عن الطبعة الثانية وأن الكتاب طبع هذه المرة بغير علمه .

(٢) من أمثلة هذه الأخطاء قول المترجم أن رحلة بتس من الإسكندرية إلى القاهرة كانت بالقوافل مع أن بتس نفسه فى سرده الرحلة يقرر أنه سافر بحراً من الإسكندرية إلى رشيد ثم بطريق النيل من رشيد إلى القاهرة — وكذلك قول المترجم أن سيده أعتقه فى الجزائر ، مع أن بتس نفسه يقرر أنه أعتق فى مكة .

ولقد كان بتس كاتباً دقيقاً ، أفاد من معيشته الطويلة فى المجتمع الإسلامى ومعرفته النسبية للغة العربية ، ومع أنه يرتكب بعض الأخطاء الدالة على عدم فهم دقيق للإسلام والمسلمين[١] إلا أن رحلته بصفة عامة هامة لتاريخ أحوال الحجاز وثغورها فى أواخر القرن ١٧ .

ب — William Daniel : A Journal or Account of William Daniel, his late Expedition or Undertaking to go from London to Surrat.

إذا كانت المراجع التى تناولت جوزيف بتس متعددة ، فهى بالنسبة للرحالة وليام دانيال تكاد تكون معدومة . فلم تشر إليه .D.N.B ولم تهتم به — فيما يبدو — كتب الرحلات والإشارة إليه قليلة فى كتب التاريخ . ويبدو أن أهم مصدر له ولرحلته كتاب الرحلة نفسه . ومن المقدمة وكذلك من إشارات عن نفسه داخل الرحلة ، نستطيع أن نقول أنه كان ثريا إلى حد ما وأنه عاش فى فرنسا لفترة من الزمن وفى مرسيليا بالذات وأنه جال فى أنحاء الليفانت وزار حلب وفلسطين . أما الظروف التى جعلته يقوم برحلته إلى الهند عن طريق مصر والبحر الأحمر فهى أن مجلس المديرين لشركة الهند الشرقية فى لندن كان حريصاً على إرسال بعض المراسلات الهامة إلى سلطات الشركة فى الهند وعلى أن تصل هذه المراسلات فى وقت أقصر مما تستنفده الرحلة بطريق البحر حول أفريقية . ولذلك اتجه المجلس إلى البحث عن شخص توكل إليه مهمة القيام برحلة إلى الهند عن طريق سوريا والخليج الفارسى . وفى مايو ١٧٠٠ وقع الاختيار على وليام دانيال . وفى نفس الشهر عقدت الشركة مع دانيال عقداً خاصاً بشروط الرحلة ، يهمنا منها الشرط الخاص بأن يصل دانيال إلى البنغال فى مدى شهرين فقط من بدء الرحلة ، أى فى ٣١ أغسطس . وهذا الشرط هام لأنه كان السبب فى تغيير دانيال لطريق الرحلة إذ أنه لما وصل إلى الإسكندرية عدل عن رأيه لزحمة الوقت وارتاب أن يستخدم طريق البحر الأحمر ، فسافر من الإسكندرية إلى القاهرة فالسويس فينبع فجده التى

---

(١) بتس يترجم haggar essaad بعبارة the white stone ص ٢٤ . ويقول أن المسلمين ينقسمون إلى أربعة مذاهب والأصح طبعاً أهل السنة من المسلمين . ص ٣٢ .

وصلها فى ٢٩ أغسطس . ومع أنه اتضح لدانيال فى جده أنه لن يستطيع الوصول إلى الهند فى الوقت المحدد إلا أنه رأى أن يتابع رحلته . ووجد من تعنت السلطات الحاكمة فى جده ما عوقه فلم يصل منى قبل ١٣ سبتمبر . وفى منى وجد دانيال أن جميع المراكب الهندية قد بارحت الميناء ولا ينتظر خروج مراكب إلى الهند قبل بضعة شهور وكان التعب واليأس قد بلغ به مبلغاً كبيراً فعاد أدراجه إلى جده فينبع فشبه جزيرة سينا حيث نزل فى ثغر شرم على الساحل الشرقى لشبه الجزيرة وزار الدير الأغريقى فى جبل سيناء ، ثم سافر إلى القاهرة بطريق البر فالإسكندرية فمرسيليا . . . . إلخ . وفى لندن طلب إليه أن يكتب قصة رحلته للشركة موضحاً الأسباب التى حالت دون إتمامها — وفى نفس السنة نشر رحلته وأهداها لحاكم ولجان شركة الهند الشرقية ، ولم يعاد نشر هذه الرحلة إلا فى ١٩٤٩ .

وتنحصر أهمية دانيال فى أنه أول إنجليزى — فيما نعلم — يحاول الوصول إلى الهند عن طريق مصر والبحر الأحمر ، وإن كان دانيال نفسه مخطأ فى تصوره أنه أول أوربى يقوم بهذه الرحلة ، فقد سبقه إليها ونجح فى إتمامها الرحالة الألمانى von Harff ، والإيطالى Varthema والفرنسى Bernier — على أن الفضل يرجع لدانيال فى توجيه أنظار شركة الهند الشرقية لأهمية طريق مصر والبحر الأحمر فى المراسلات بين إنجلترة والهند وبذلك تعتبر رحلة دانيال مقدمة لرحلات Sir Eyre Coote (١٧٧٠) . E. Irwin (١٧٧٧) ، وغيرهم من موظفى شركة الهند الشرقية ممن استخدموا هذا الطريق من إنجلترة إلى الهند أو العكس فى القرن ١٨ . ودانيال يعانى كذلك مما تعانيه رحلات هؤلاء المتأخرين ، من معرفة ضئيلة أو معدومة للغة الأصلية للبلاد التى زاروها وإدراك مهوش لظروف هذه البلاد وضيق الوقت لدراسة منظمه . وحتى عدم الاهتمام بتدوين مذكرات أثناء الرحلة . فمن رحلة دانيال يتوقع أنه لم يعتنى بكتابة مذكراته أثناء الرحلة ، بل اعتمد اعتماداً يكاديكون كاملا على ذاكرته مما أدى به إلى الوقوع فى جملة من الأخطاء .

من أمثلة ذلك ادعائه زيارة أحد الثغور بين مخا وجده يقال له « يمن »[1] . والواقع أنه ليس فى كتابات دانيال عن مصر شيئاً جديداً بالنسبة للرحالة المعاصرين له ، ولكن ملاحظاته وخبراته الشخصية فى ينبع وجده ويمن ومخا هامة لدراسة الظروف التجارية والسياسية للثغور الإسلامية على الساحل الشرقى للبحر الأحمر . كما ينفرد دانيال بزيارة لشبه جزيرة سينا فى مطلع القرن ١٨ .

ج — A Voyage to Ethiopia made in the year 1698, 1699 and 1700 Describing particularly that Famous Empire, like wise the Kingdoms of Dongola, Sennar, part of Egypt ... etc. By Monsieur Poncet. M.D.

ربما كانت رحلة Charles Jacque Poncet الفرنسى هى أهم الرحلات الثلاث ، وذلك لعدة أسباب . فى مقدمتها أن رحلة بونسيه كانت أوسع مدى من الرحلتين السابقتين ، فهى تشمل مصر ودنقله وسنار والحبشة وبعض ثغور البحر الأحمر الغربية والشرق (مصوع ، وجده) كما تشمل فوق ذلك شبه جزيرة سينا . هذا مع العلم بأن ميدان الرحلة الأساسى كان فى الحبشة لإقامته الطويلة بها ولأنه أفرد لها الجزء الأكبر من كتابه — وأهمية كتابة بونسيه عن الحبشة تجىء كذلك من صلته بالنجاشى ، إذ كان طبيبه الخاص ولصلة رحلته فى الحبشة بتنازع جماعة الجوزويت وجماعة الفرنسسكان فى عملية التبشير فى الحبشة[2] .

تبدأ قصة الرحلة فى ١٦٩٨ حيث كان بونسيه مقيما فى القاهرة فى عهد قنصلية Charles de Maillet وكان بونسيه طبيباً للباشا العثمانى — وفى هذه السنة وصل القاهرة من الحبشة الحج على أحـــد عملاء نجاشى الحبشة ليبحث عن طبيب للإمبراطور المريض ولابنه . ووقع اختياره على بونسيه فعرض عليه السفر إلى الحبشة وبتدخل Maillet أمكن إقناع بونسيه .

---

(١) ربما كان دانيال يقصد الحديدة .

(٢) عن النزاع بين الجماعتين التبشيريتين وعلاقة هذا النزاع برحلة بونسيه راجع .

Michand : Biographie Universelle. T. 34, p. 47.
Alfred Lacaze : Nouvelle Biographie Genérale T. 40, p. 738.

وفى مايو ١٦٨٨ سافر بونسيه ومعه خطاب من ماليه إلى النجاشى يعرض عليه باسم لويس الرابع عشر ملك فرنسا إقامة علاقات بين فرنسا والحبشة . وسافر مع بونسيه عميل النجاشى الحج على وفى صحبتهما جماعة من الفرنسسكان والجوزويت ، واتخذوا طريق النيل حتى منفلوط ثم طريق القوافل حتى دنقله فسنار . ومكثوا فى مدينة سنار ثلاثة شهور نزلوا فيها ضيوفاً على ملكها — وفى مايو ١٦٩٩ تركت الجماعة سنار ومنها إلى غوندار عاصمة الحبشة التى وصلوها فى ١١ يوليو . واستقبل النجاشى بونسيه استقبالا طيباً ثم بدأ فى علاجه . ويبدو أن إقامة بونسيه فى غوندار لم تكن سعيدة لأنه طلب فى أوائل ١٧٠٠ السماح له بالسفر وبعد إلحاح سمح له النجاشى فى أبريل من الخروج (وكان النجاشى قد شفى هو وابنه) على أن يصحبه الأرمنى مراد شلبى كسفير للنجاشى ومعه هدايا وخطابات للويس ملك فرنسا . ولسبب ما اضطر بونسيه إلى أن يرحل بمفرده على أن يلحق به السفير — وبالفعل وصل بونسيه مصوع فى ٧ سبتمبر ١٧٠٠ ثم منها إلى جده حيث التقى بوليام دانيال صاحب الرحلة السابقة ومن جده إلى شبه جزيرة سيناء حيث لحق به السفير الحبشى وعن طريق الطور والسويس وصل القاهرة فى ١٠ يوليه ١٧٠١ وإلى هنا ينتهى بونسيه من سرد رحلته[١] .

لم يقم خلاف بين بحاث التاريخ والرحالة المتأخرين حول دقة وأهمية ما كتبه بونسيه خاصة بمملكة سنار وثغور البحر الأحمر الغربية والشرقية وشبه جزيرة سينا ، ولكن الخلاف فى الرأى احتدم فى تقدير ما كتبه هذا الرحالة عن الحبشة وهى البلاد التى أفرد لها أكبر جزء فى كتابه . فكل من[٢] A.H. Jones J.N. Baker[٣] E. Hea wood[٤] يتهم بونسيه فى كتابته عن الحبشة

---

(١) ما حدث بعد ذلك من خلاف بين السفير الحبشى والقنصل الفرنسى وبين بونسيه والسفير وتدخل الباشا العثمانى فى القاهرة راجع ص XXIX إلى XXXIV من مقدمة سير وليام فوستر .

(٢) A history of Abyssinia 1935, p. 113.

(٣) A history of Geographical discovery in the 17th. 18th. centuries 1912 p. 152.

(٤) A history of Geographical discovery 1931. p. 478.

بالسطحية والجهل . وفى نفس الوقت يتحمس له بعض الرحالة والمؤرخين ، فجيمس بروس الرحالة الإسكتلندى الذى زار الحبشة فى ١٧٧٠ ينصف بونسيه ويعتبر كتابه إضافة طيبة للمعلومات الجغرافية المعاصرة عن الحبشة[١] . بل ويرى J.T. Bent أن بونسيه فى كتابته عن الحبشة كان دقيقاً ، وأكثر دقة من بروس نفسه . وربما كان حكم D. Mathew وهو أكثر البحاث عناية بدراسة رحلة بونسيه — أدق جميع هذه الأحكام ، فهو يرى أن رغبة بونسيه فى تضخيم أهمية بعثته قد قادته إلى المبالغة فى تصوير الإمبراطور الحبشى وما حوله . وعلى كل فيبدو أن الآراء تكاد تجمع بصفة عامة على أنه رغم أهمية كتابة بونسيه عن الحبشه كشاهد عيان ، إلا أنه كان فى كثير من المواضع مخيباً للآمال التى عقدت على رحلته . وهنا يجب أن نتلمس الأسباب لهذا الفشل ، إذ يبدو أن بونسيه لم يكتب مذكراته إبان الرحلة ، بدليل تجنبه كتابة تواريخ الحوادث التى عاصرها فى الحبشة . بل أكثر من ذلك أنه يبدو أن بونسيه لم يكن ينوى الكتابة عن رحلته فى الحبشة على الإطلاق تاركاً هذا العمل لغيره ممن صاحبه من جماعة الجوزويت . ومن الثابت على كل حال أن بونسيه حين كتب هذه المذكرات اعتمد اعتماداً كلياً على ذاكرته . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى كان النجاشى يقيد حريته فى الاختلاط بالناس والتجول فى البلاد ، ربما خوفاً عليه من أذى الأهلين الذين كرهوا الأوربيين بعد التجربة البرتغالية فى بلادهم وللنشاط التبشيرى الذى كان يقوم به هؤلاء الأوربيين هناك — وكتابة بونسيه — مهما اختلف الرأى حولها — أهم ما كتب عن الحبشة فى الفترة ما بين طرد البرتغاليين من الحبشة ١٦٣٣ وزيارة الرحالة الإسكتلندى جيمس بروس لها فى ١٧٦٩ .

محمد أنيس

---

(١) Travels to discover the Source of the Nile 1768-73. Second ed. 8 vols. Vol. III. p. 506.